(٤٠)

الأقسام المنفية في القرآن الكريم

يقول فضيلة الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن فى المعنى المراد من الأقسام المنفية ما يلى :

* المعنى المراد من الأقسام المنفية هو التلويح بالقسم دون إمضائه إذا كان الأمر المقسوم عليه أوضح من أن يُدل عليه وأن يؤكد فى الدلالة عليه بقسم. إنه ينزل منزل البدَهيات، وتوكيد البدهيات، لا يزيدها عند الذين لا يؤمنون بها إلا إنكاراً. والتلويح بالقسم إشارة إلى أنه لو كان الأمر يحتاج إلى قسم لمضى القسم إلى غايته، ولما سُلط عليه النفى الذى حال بينه وبين أن يقع على المقسم عليه».

وعموماً .. فإن الأقسام المنفية هى صيغة من صيغ القسم فى القرآن الكريم. فإذا تتبعنا هذه الأقسام المنفية سوف نجد أن غالبيتها تقع فى الجزء التاسع والعشرين والثلاثين من القرآن الكريم وقسم واحد منها يقع فى الجزء السابع والعشرين.

وفيما يلى نستعرض هذه الأقسام المنفية .. القسم وجوابه ودلالته :

١ ـ يقول تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾.

[الواقعة: ٧٥ – ٧٩].

يقسم الله ـ تعالى ـ بمواقع النجوم ويصف القسم والمقسوم به بأنه عظيم وهو وصف لم يتكرر فى القرآن الكريم لأى قسم سواء كان مثبتًا أم منفيا. وهذه الآيات أول ما نزلت على قوم لا يعلمون عن مواقع النجوم إلا أقل القليل .. لذلك قال تعالى: ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾.

والآن وقد تقدمت علوم الفلك والفضاء بدرجة مذهلة للتطور الهائل فى المناظير المقربة والأقمار الصناعية التى تجوب فى الفضاء لتجمع المعلومات وترسلها إلى المراصد الأرضية ومراكز الأبحاث لكى يحللها العلماء عن طريق الحاسبات الإلكترونية الضخمة «السوبر كمبيوتر».

ولا ننس هذا المشهد المثير عندما وصل الإنسان إلى القمر وسار عليه خطوات وجمع منه بعض الأحجار وعاد إلى الأرض بثروة ضخمة من المعلومات.

وكل يوم يمر يأتى لنا بجديد فى هذا المجال، وسوف يظل قوله تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ سارى المفعول ـ إن جاز التعبير ـ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما وصل إليه الإنسان وما سوف يصل إليه من علم عن النجوم ومواقعها ما هو إلا قطرة فى محيط الحقيقة والعلم. إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التى لا تحصى فى الفضاء الهائل الذى لا نعرف له حدوداً. مجموعة واحدة ـ هى المجرة التى تنتسب إليها أسرتنا الشمسية ـ تبلغ ألف مليون نجم وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

إن ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد كثير ولكن نكتفى بهذا القدر الذى يوضح عظمة القسم والمقسوم به لبيان عظمة المقسوم عليه أو جواب القسم .. فما هو جواب القسم ؟

هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾.

فهل هناك أعظم من القرآن الكريم الذى أنزله الله ـ تعالى ـ من اللوح المحفوظ الذى لا يمسه إلا الملائكة المطهرون ؟

نقول: ما أعظم من أقسم .. وهو الله، وما أعظم المقسوم به .. وهو مواقع النجوم، وما أعظم المقسوم عليه .. وهو القرآن الكريم.

٢ ـ يقول تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤٣].

هذا قسم يعرف منه الإنسان أن مخلوقات الله ـ تعالى ـ لا تقتصر على ما نراه أو ما نعرفه ولا نراه مثل الملائكة والجن، وذلك لتعظيم ما خلقه الله من مخلوقات غير

محصورة فيما تراه أعيننا ولتعظيم القسم ذاته وبالتالى المقسوم عليه. هو قسم بكل ما خلقه الله .. ما نبصره وما لا نبصره.

وهو قسم أشمل من القسم بمواقع النجوم. والمقسوم عليه أيضًا .. هو القرآن، فما قول الرسول عليه الصلاة والسلام إلا القرآن .. وقد جاء ذكر القرآن من خلال ذكر الرسول تشريفًا له مع وصف الرسول عليه الصلاة والسلام بما وُصف به القرآن .. فهو هناك فى سورة الواقعة قرآن كريم، وهوهنا فى سورة الحاقة رسول كريم .. وهو وصف كريم من الله الكريم.

ونستطيع أن نقول هنا أيضًا .. ما أكرم من أقسم .. وهو الله، وما أكرم المقسوم به .. وهو مخلوقات الله جميعها ما نبصره منها وما لا نبصره، وما أكرم المقسوم عليه، وهو القرآن الكريم الذى نطق به وبلغه الرسول الكريم.

٣ ـ يقول تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١].

يقسم الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى .. وهو الرب .. مع خصيصة من خصائص الربوبية وهو أنه رب المشارق والمغارب .. إشارة إلى الزمان والمكان، وأنه خالق الزمان والمكان، وأنه رب الزمان والمكان.

فالشرق والغرب يشيران إلى جهات الأرض الأصلية مضافا إليهما الشمال والجنوب .. وهذا ما نعنيه بالإشارة إلى المكان. والإشارة إلى الشرق والغرب لم تأت هكذا فى نص الآية ولكنها جاءت بلفظ المشارق والمغارب للإشارة إلى مشرق الشمس ومغربها وبالتالى تعاقب الليل والنهار. وهذا ما نعنيه بالإشارة إلى الزمان. كما جاء اللفظ بالجمع للإشارة إلى أن للشمس مشارق وليس مشرقًا واحدًا، فإذا أشرقت فى مكان أشرقت بعده فى مكان آخر، وبعده فى مكان ثالث .. وهكذا تبعًا لدوران الأرض حول نفسها قبالة الشمس.

وهكذا الأمر بالنسبة لمغرب الشمس.

لقد أخذنا هذا القسم لندور مع الأرض شرقًا وغربًا، ولكى نتعرف على الزمان والمكان، ونؤمن بقدرة رب المشارق والمغارب، ونشعر بأهمية القسم والمقسوم به والمقسوم عليه.

فما هو المقسوم عليه ؟

﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾، وتنتهى الآية (٤٠) لتبدأ بعدها الآية (٤١) بقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾.

وحكمة النظم على هذا النحو لإثبات قدرة الله المطلقة دون تخصيص، ثم ذكر مظهراً من مظاهر هذه القدرة المطلقة وهو تبديل المكذبين بخير منهم من المؤمنين المصدقين بالغيب دون منازع يسبقه لمنع نفاذ مشيئته.

وهذا القسم ينطوى على تهديد رهيب للمعاندين والمكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويلحقوا بركب الإيمان ويسبقوا إلى الخير قبل أن يسبقهم الله فى إنفاذ تهديده.

٤ ـ يقول تعالى: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ١ - ٤].

يقسم الله ـ تعالى ـ بيوم القيامة وهو أمر غيبى، ويقسم بالنفس اللوامة وهى أمر محسوس أما عن القسم بيوم القيامة .. فكما أقسم الله ـ تعالى ـ بالمشهود مثل الشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، والتين والزيتون .. وهى مشهودات لا سبيل لإنكارها، فقد أقسم بيوم القيامة فهى واجبة الوقوع (الواقعة) وهى حقيقة (الحاقة) مثل الحقائق المشهورة التى أقسم بها الله .. بل هى أشد شهوداً منها .. ولكن عند المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾، ﴿ ... وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

لذلك كان يكفى التلويح بالقسم .. وهل يكون قسم بوهم وخيال، وكذب وافتراء، أم يكون بحقيقة راسخة كرسوخ الجبال، بل أشد منها رسوخاً ؟

وأما عن القسم بالنفس اللوامة : فالنفس اللوامة ليست شيئًا ملموسًا، ولكنها أمر محسوس والارتباط بينها وبين يوم القيامة ارتباط وثيق.

إن النفس لتلوم صاحبها على اقترافه ذنبًا أو وقوعه فى إثم، أو أمره بمنكر أو نهيه عن معروف، أو تركه فريضة أو واجب أو مستحب.

وكل هذه المفردات التى ذكرناها تتعلق بالدين وبوم الدين .. أى يوم القيامة.

فلا نفس لوامة دون قيامة، ففيم اللوم والتلاوم إذن لو لم تكن قيامة وحساب وجنة ونار ؟!

والنفس اللوامة نعمة عظيمة يؤتاها المؤمنون بالله واليوم الآخر .. فهى أداة تصحيح الأخطاء، وهى وسيلة الرجوع إلى الحق، وهى الآلة التى ترفع يد المؤمن بالدعاء إلى الله بالعفو والمغفرة والتوبة، وهى جهاز الصيانة لإيمان المؤمنين، وهى الدواء الذى يشفى النفوس من عللها والأدران التى تعلق بها.

مما سبق يتبين لنا أهمية القسم وأهمية المقسوم به .. وذلك لأهمية المقسوم عليه وهو البعث من القبور .. وهو أول وقائع يوم القيامة بعد النفخة الثانية فى الصور حيث يتلوه الحشر ثم الحساب ثم الصراط ثم الجنة أو النار.

لقد أشارت الآيات إلى البعث فى قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣ - ٤].

ومن نماذج المنكرين للبعث هذا المشرك الذى جاء للرسول عليه الصلاة والسلام وبيده عظم قد رُمَّ وتفتت سائلاً: هل يعود هذا العظم إنساناً حيًا مرة أخرى ؟ فيسجل الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا المشهد فى قرآن يتلى إلى يوم تقوم الساعة .. يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

ويأتى التأكيد فى سورة القيامة رداً على هذا الإنسان الذى يظن أن الله ـ تعالى ـ لن يجمع عظامه ـ كناية عن البعث ـ برد حاسم بأن الإعادة مرة أخرى لن تكون

بجمع العظام فحسب بل سوف يعود أدق ما كان فى جسده إلى ما كان عليه وهو البنان .. أى أطراف الأصابع وما فيها من تعرجات دقيقة تسمى «البصمة» التى لا تتشابه بين الخلائق منذ أن خلق الله آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذا الرد الإلهى على المنكرين للبعث يشبه قول أحدهم للآخر ـ ولله المثل الأعلى ـ هل تستطيع أن تعيد جدران البيت المتهدمة إلى ما كانت عليه ؟

فيكون رد الآخر : بل أستطيع أن أعيد النقوش والزخارف التى كانت تزين هذه الجدران إلى ما كانت عليه .. إثباتاً لقدرته الفائقة على إعادة البناء إلى ما كان عليه.

ولو أردنا الاستطراد فى هذا القسم والمقسوم به والمقسوم عليه لطال الحديث .. ولكن نكتفى بهذا القدر بعد أن اتضحت أهميته .. وسبحان من هذا كلامه.

٥ ـ يقول تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾.

[التكوير: ١٥ - ٢٥].

يقسم الله ـ تعالى ـ بما فى السماوات من كواكب ونجوم تجرى فى مداراتها تبدو لامعة إذا أقبل الليل بظلمته فإذا سرى الليل وانقضت ساعاته أقبل النهار بضوئه يُؤْذن بميلاد يوم جديد يتنفس كتنفس المولود الجديد عقب ولادته، فإذا ولد النهار وتنفس اختفت الكواكب والنجوم وانطفأ نورها وكأنها ظباء دخلت كناسها (الكناس: بيت الظباء).

إنها جولة فى ملكوت الله ـ تعالى ـ من خلال هذا القسم والمقسوم به، أما المقسوم عليه فهو رسول السماء، ورسول الأرض، والرسالة .. أى جبريل عليه السلام، ومحمد عليه الصلاة والسلام، والقرآن الكريم. فقد أرسل الله ـ تعالى ـ رسول السماء ودنيا الناس مظلمة بظلمات الشرك والوثنية، أرسله بنور الرسالة» ﴿ ... قَدْ

جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. إلى رسول الأرض ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. ليخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ﴿.. كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

من هذا السرد تتضح لنا العلاقة بين المقسوم به والمقسوم عليه فإذا قابلنا بين المقسوم به والمقسوم عليه فسوف نجد أن الارتباط وثيق بينهما وتبين لنا حكمة هذا القسم الذى أكد الله ـ تعالى ـ فيه حقيقة الرسالة، وحقيقة الرسول، وحقيقة الملائكة، وقبل كل ذلك حقيقة الإله الذى أرسل، ووصف فيه جبريل بالكرم والقوة والأمانة، ونفى فيه عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الجنون، ونفى فيه عن الرسالة أن تكون من أقوال الشياطين مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

[الشعراء: ٢١٠ – ٢١٢].

والنفى فى كتاب الله تعالى لا يقل أهمية عن الإثبات .. ويكفى فى الدلالة على ذلك أن شهادة التوحيد تبدأ بالنفى ثم الإثبات .. لا إله إلا الله.

٦ ـ يقول تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٦ – ١٩].

يقسم الله ـ تعالى ـ ببعض الظواهر الكونية التى لا تغيب عن أحد .. وأولها الشفق وهو ما نراه فى السماء وقت الغروب إيذانًا بقدوم الليل وهو المقسوم به الثانى وما يحمله هذا الليل للخلائق وما يخفيه فى ظلماته، ثم القمر فى حالة اكتماله بدرًا فى منتصف الشهر.

إنها ظواهر كونية تنتقل من حالة إلى حالة وهى من خلق الله، مثل الإنسان الذى ينتقل من حالة إلى حالة .. من صغر إلى هرم إلى شيخوخة، ومن صحة إلى

مرض، ومن رخاء إلى شدة، ومن يسر إلى عسر، ومن غنى إلى فقر .. العكس صحيح أيضاً، حتى ينتقل من حياة إلى موت ثم إلى بعث فيلقى الله ـ تعالى ـ ولابد ملاقيه .. فهو كادح إلى ربه كدحاً فملاقيه ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وهذاهو معنى المقسوم عليه وهو قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

من هنا يتضح لنا أيضاً العلاقة الوثيقة بين المقسوم به والمقسوم عليه وحكمة هذا القسم الذى يهدف أيضًا لإثبات حقائق الإيمان لذلك يقول الله ـ تعالى ـ بعد ذلك: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٠ – ٢٤].

وفى هذه الآيات تهديد ووعيد للمكذبين لعلهم يثوبون إلى رشدهم.

٧ ـ يقول تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ١ – ٤].

يقسم الله ـ تعالى ـ بالبلد وهى مكة التى بها أول بيت وضع للناس: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ...﴾ [آل عمران: ٩٦]. وهذا البيت هو الكعبة، وهذه الكعبة حيث بيت الله الحرام جعلت مكة حرمًا آمنًا .. يأمن فيه الإنسان والحيوان والطير والنبات ويجبى إليه ثمرات كل شىء مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ...﴾ [القصص: ٥٧].

ومن أجل هذا البيت وفدت إلى البلد (مكة) وفود الحجيج من كل فج عميق وما وراء ذلك من رزق وفير لأهل هذا البلد وشرف ومكانة بين العرب، وعلى أساس خدمة هذا البيت وخدمة الحجيج .. توزعت مناصب الشرف على كبراء هذا البلد مثل السدانة والسقاية والرفادة، ومن أجل ذلك أمنت قوافل تجارتهم إلى اليمن فى الشتاء وإلى الشام فى الصيف.

ومن أجل هذا البيت أيضاً وصفت مكة بأنها أم القرى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشوري: ٧].

وثبت حديثاً أن مكة هى مركز الكرة الأرضية، ونكتفى بهذا القدر لبيان أهمية القسم وعظمة المقسوم به.

ومما يزيد فى هذه الأهمية والعظمة أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد حل أى سكن هذا البلد .. وهذا من باب التكريم والتشريف للرسول لأن حلوله فى هذا البلد جُعل جزءاً من هذا القسم .. وهذه الإضافة كقول أحد الناس لآخر: بيتك هذا جميل وسكناك فيه يزيده جمالاً.

ثم عطف الله على البلد قسماً آخر بوالد وما ولد مع التنكير .. وهذا التنكير فتح باباً واسعاً للمفسرين لتعدد التفسيرات فمنهم من قال أن الله ـ تعالى ـ بعد أن أقسم بالمساكن أقسم بالساكن، ومنهم من قال أن الله ـ تعالى ـ بعد أن أقسم بالمبانى ـ وأولها الكعبة ـ أقسم بالبانى وهو إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، ومنهم من أطلق المعنى فجعله كل والد وكل مولود، وكل والد كان مولوداً، وكل مولود سوف يكون والداً .. والله أعلم بمراده.

هذا عن القسم والمقسوم به .. فماذا عن المقسوم عليه ؟

أما عن المقسوم عليه ـ أو جواب القسم ـ فهو قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾. أى فى تعب ومشقة. وأول هذا الكبد .. تكبد نطفته فى شكل علقة أى قطعة من الدم تكبدت مثل الكبد ـ وهو دم متجمد ـ وتعلقت فى جدار الرحم ثم تطورت فى أطوار خلقها، وهذه الأطوار ذكرها الله فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٦].

والطفل يكابد بعد ذلك آلام الجوع حتى يلتقم ثدى أمه، وآلام تبوله وتغوطه فى لفائفه، وآلام خروج الأسنان والأضراس.

ثم يكابد بعد ذلك مراحل استقامة عوده ودبيبه على الأرض وهى تبدأ بالجلوس ثم بالحبو ثم المشى بعد التعثر.

وتنتهى مكابدات الطفولة بالفطام لتبدأ مكابدات الصبا من تعليم وتأديب، ثم المراهقة وما أدراك ما المراهقة وما فيها من مكابدات جسمية ونفسية وعاطفية.

بعد ذلك تبدأ مرحلة الشباب ثم الرجولة ثم الكهولة والشيخوخة حيث أرذل العمر .. وما فى هذه المراحل من مكابدات تحصيل العلم والمعرفة وتعلم الصنائع المختلفة، وتحصيل لقمة العيش قليلها وكثيرها، وكذلك مكابدات تقلب الأحوال فيكابد الفقر والغنى، والمرض والصحة، والضراء والسراء، والشر والخير، والشدة والرخاء، والمعصية والطاعة، .. وغيرها من المكابدات حتى يستوفى أجله.

فيكابد سكرات الموت، ثم يكابد سؤال الملكين وضغطة القبر ووحشته حتى يكون له بعد ذلك إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

فإذا انتهت حياته البرزخية بعث من قبره ليكابد الحشر والعرض والحساب .. ثم بعد ذلك ليس له من دار .. إلا الجنة أو النار فإن كانت الجنة فبها ونعمت حيث الراحة الحقيقية والراحة الأبدية حيث لا مكابدات مطلقاً .. جعلنا الله من أهلها.

وإن كانت النار فبئس القرار حيث المكابدات أبداً .. أعاذنا الله منها؛ لذلك تنتهى سورة البلد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ [البلد: ١٧ - ٢٠].

وأخيراً .. بعد أن انتهينا من هذه الجولة مع الأقسام المنفية فى القرآن الكريم التى ذكرناها على سبيل الحصر وبترتيب ورودها فى كتاب الله .. نستطيع أن نستخلص الآتى :

١ ـ أن الأقسام المنفية شأنها كشأن الأقسام المثبتة تهدف إلى تأكيد حقائق الإيمان.

٢ ـ أن أهمية المقسوم عليه تُعرف من أهمية المقسوم به.

٣ ـ أنه وإن كان القسم وجوابه ينطوى ـ غالبًا ـ على تهديد ووعيد للمكذبين فإنه ينطوى ـ فى نفس الوقت ـ على توجيه نظر المؤمنين إلى أهمية وعظمة المقسوم به للتأمل والتدبر والاتعاظ.

٤ ـ أن هذه الأقسام تهدف إلى إقامة الحجة على المكذبين والمعاندين.

٥ ـ أن هذه الأقسام تصل المشهود بالغيب، والدنيا بالآخرة، والمقدمات بالنتائج، والبدايات بالعواقب.

ونسأل الله حسن العاقبة.

(٤١)

نسبة البنات (الملائكة) لله

ادعاء باطل ، ورد مفحم ، وتعقيب هام

يقول تعالى فى سورة الزخرف :

* ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٥ - ١٩].

* الشرك .. ضلال وضياع وانحراف، وهذه الآيات تعرض لنا لوناً من ألوان الفكر المنحرف للمشركين، وشكلاً من أشكال التخبط يظلون فيه طالما ارتضوا لأنفسهم البعد عن حصن الأمان وهو حصن التوحيد. والكافرون قد حددوا موقفهم منذ البداية .. وكفروا بالله واليوم الآخر.

أما هؤلاء المشركون فقد عرفوا أن لهذا الكون إلهًا قادراً، خلقهم، ورفع فوقهم السماوات، وبسط تحت أقدامهم الأرض، وأنزل من السماء ماءً فيه حياتهم وحياة أنعامهم ونماء زروعهم وهو الذى خلق الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم. وقد أثبت الله ـ تعالى ـ عليهم ذلك فى كتابه العزيز على النحو التالى :

* ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾ [العنكبوت: ٦١].

* ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

* ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩].

* ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ورغم هذه المعرفة، فقد أشركوا مع الله آلهةً مُدَّعاةً من الأصنام والأوثان، أو من

الكواكب والنجوم، ونسبوا لله الولد واختاروا له ما يكرهونه لأنفسهم، فقد جعلوا الملائكة بنات الله.

فهل هذا يتفق مع التوقير الواجب والتعظيم اللازم للإله الخالق المعبود ؟

وإن كان هذا الادعاء عجيبًا فى بطلانه، فإن الرد الإلهى أعجب فى نصاعة حقائقه، ووضوح أدلته .. وهو نموذج يلفت النظر لحلم الحليم، وحكمة الحكيم، وصبر الصبور .. سبحانه وتعالى .. يتعلم منه كل داع إلى الله كيف يكون التطبيق الصحيح لقوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

[النحل: ١٢٥].

لقد جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، وهذا ادعاء لا دليل عليه ولا بينة ولا علم موثق، فهم لم يشهدوا خلقهم فيكون ادعاؤهم هذا بمثابة شهادة الزور وسوف يكتبها الله ـ تعالى ـ فى صحفهم ويسألهم عنها يوم القيامة. والملائكة من خلق الله وهم عباد الرحمن ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، جعلهم هؤلاء المشركون بنات الله فنسبوا لله الولد وجعلوهم إناثًا .. أى نسبوا لله ما يكرهون لأنفسهم كما قال تعالى فى هذه السورة وفى سورة النحل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

ولم يقف ضلالهم عند هذا الحد بل إنهم أشركوا الملائكة مع الله فى العبادة وهم جزء من خلق الله وعباده، وهو لون من الألوان المتعددة لشرك المشركين، ولقد وصف الله الإنسان الذى يفعل ذلك بأنه: «كفور مبين» لأن الكفر كله ملة واحدة طالما انحرف الإنسان عن ملة التوحيد، ولأن كفر الكافر وشرك المشرك ـ بعد إقامة الحجة البالغة عليه من الله ـ يكون قد كفر أو أشرك وهو على بينة من أمره ولا عذر

له عند الله يوم القيامة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٧].

إن تصوراتهم الخاطئة لا تنتهي عند حد وتخرصاتهم الضالة لا نهاية لها واستمع إلى قولهم بعد ذلك: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]. فهم ينسبون عبادتهم للملائكة إلى مشيئة الله لأنه لو شاء غير ذلك ما عبدوهم. فكيف عرفوا هذه المشيئة ؟!

إنهم يقدمون هذا الادعاء الباطل مبرراً لعبادتهم الباطلة ولو عرفوا الله حق المعرفة ما أشركوا معه في عبادتهم له جزءاً من مخلوقاته، وما نسبوا له الولد، وما جعلوا أولاده ـ وتعالى الله عن الولد ـ بناتاً .. ولوحدوه مع الموحدين.

* قوله تعالى : ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾.

[الزخرف: ١٨].

لقد أفردنا لهذه الآية جزءاً مستقلاً رغم أنها ضمن الآيات التي أسلفناها نظراً للوصف المعجز الذي ورد بها للإناث .. والوصف يبدأ بصيغة الاستفهام الإنكاري لنسبتهم البنات لله ونسبة البنين إليهم. فهم يرتضون لله ما لا يرضونه لأنفسهم رغم أنه لا يجوز نسبة الولد لله أصلاً. فالبنات نظراً لطبيعة خلقهن ولأسلوب تنشئتهن وتربيتهن القائم على التدليل والتزين بألوان الحلي والزينة لإبراز أنوثتهن في مراحل نموهن منذ الطفولة حتى تصل الواحدة منهن إلى سن البلوغ فتحجب عذراء في خدرها حتى تنتقل من بيت أبيها إلى بيت زوجها في كامل بهائها وزينتها فتلبس الحرير وتتزين بالذهب والحلي وتتجمل بما هو سائد من أدوات التجميل وإبراز الحسن في كل عصر، وليس لها باع في الجدال والقتال والصراع وأقصى ما أثبته الله للنساء هو الكيد ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]. فالكيد هو الأسلوب الذي يتناسب مع تكوينهن ونشأتهن في الحلية .. إن أردن الدفاع أو الهجوم.

أين هذا من الفتى الذى ينشأ على الفتوة والنزال والجدال، ويُعلَّم فنون الفروسية والقتال والنزال بالسيف أحياناً وبالكلمة أحياناً أخرى. وهو رصيد مدخر لقومه إذا دعى الداعى للدفاع أو الهجوم، وإذا حمى وطيس المعركة مع الأعداء. وحماية النساء فى هذه الحالة يكون من أكبر دوافع الحرب والبسالة فى القتال حتى لا يقعن سبايا فى أيدى الأعداء فيجلبن لقومهن العار الذى لا يمحى إلا بقتال ينتصرون فيه ..

فهل يليق بعد ذلك نسبة البنات لله ونسبة البنين لهم ؟!

* بعد هذا الوصف البديع للبنات فى كلمات قليلة .. ورغم ذلك فهو الأشمل والأكمل، فإن لنا تعقيبًا بشأن تربية البنات وأثرها بعد ذلك فى بيوت أزواجهن. فالبنات اللاتى أُحسن تربيتهن ديناً وخلقًا، شكلاً وموضوعًا وصفهن الله وصفاً بديعًا أيضاً فقال: ﴿ ... فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ... ﴾.

[النساء: ٣٤].

ووصفهن الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: «ما استفاد المؤمن ـ بعد تقوى الله عز وجل ـ خيراً من زوجة صالحة: إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله» رواه ابن ماجه عن أبى أمامة رضي الله عنه.

واللاتى لم يُحسن تربيتهن أشار إليهن الله فى قوله تعالى:

﴿ ... وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾.

[النساء: ٣٤].

وهذه الآية تقسم النساء من حيث النشوز إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ينتفع بالموعظة لأن الزوجة فى هذه الحالة لم تتعلم فى بيت أبيها أو نسيت، فإذا وُعظت من زوجها وعلمت خطأها أو تذكرت .. رجعت عنه ولا تعود إليه.

القسم الثانى : لا يرتدع إلا بالهجر فى الفراش وهو إيذاء معنوى، فلا يكسر عنادها ولا يقيم عوجها إلا حاجتها الغريزية لزوجها .. فتسترضيه وترجع عن خطئها.

القسم الثالث : لا يرتدع إلا بالضرب، وهو إيذاء بدنى .. حدد الشرع حدوده وشروطه. وغالبًا ما يكون هذا النوع من النساء قد تربت فى بيت أبيها على هذا الأسلوب فى التربية والتقويم.

وهذه الأقسام الثلاثة للنساء فى بيوت أزواجهن مرتبط ارتباطاً وثيقًا بأسلوب تربيتهن فى بيوت آبائهن .. فلينتبه الآباء إلى ذلك، وليختاروا لبناتهم نوعًا من هذه الأنواع الثلاثة إذا انتقلن إلى بيوت أزواجهن .. وكل نوع أو قسم مرتبط كما قلنا بأسلوب التربية .. فليتقوا الله فى تربية بناتهن حتى يكنّ صالحات قانتات حافظات للغيب، ولا يكنّ من الناشزات.

وخير ما نختم به هذا التعقيب قول الرسول عليه الصلاة والسلام فى حسن تربية البنات وثواب ذلك عند الله تعالى: «من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان، أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة» رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى ﷺ ، وأبو داود إلا أنه قال: «فأدبهن، وأحسن إليهن، وزوجهن فله الجنة».

(٤٢)

يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له

يقول تعالى فى سورة الحج :

* ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

* للأمثال شأن كبير فى كتاب الله، وهى وسيلة هامة من وسائل توضيح المعانى لقارئ القرآن الكريم، وتيسير فهمه، واستجلاء مقاصده ومراميه، وبدونها قد تستغلق المعانى، ويصعب الفهم، ويغيب المقصد.

وإذا كانت آيات القرآن الكريم قد وُصِفَت بأنها بينات فإن ضرب الأمثال أحد وسائل هذا البيان .. أى الوضوح.

* وقد قال تعالى فى أسباب ضرب الأمثال للناس فى القرآن الكريم ما يلى :

* ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

[الزمر: ٢٧].

* ﴿ ... وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

أى أن ضرب الأمثال للناس فى القرآن الكريم للتذكر والتفكر .. التذكر المانع للنسيان والغفلة، والتفكر الجالب لليقين والحكمة.

وقد وصف الله ـ عز وجل ـ من يعقل هذه الأمثال بالعلم مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وتتباين مواقف الناس إزاء الأمثال التى يضربها الله تبعًا لمواقفهم من الإيمان به وبكتبه ورسله ويتضح هذا التباين فى قوله تعالى :

* ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦].

فالذين آمنوا يعلمون أنه الحق من ربهم، والذين كفروا يستهينون بالمثل، وكيف يُضرب المثل ببعوضة حقيرة الشأن فى نظرهم وكل ما يعرفونه عنها أنها إما تسبقهم فتلدغهم وإما يسبقونها فيتفادون لدغتها أو يقتلونها. فيكون نصيب الذين آمنوا الهدى من ضرب المثل، ويكون نصيب الذين كفروا الضلال .. لأنهم فاسقون.

* بعد هذه المقدمة اللازمة لموضوع الأمثال فى القرآن الكريم، وهو موضوع يطول الحديث عنه، ولكن حديثنا يقتصر فى هذا المقال على هذه الآية الكريمة من سورة الحج التى صدرنا بها هذه السطور.

* تبدأ الآية بنداء من الله ـ تعالى ـ إلى الناس، والمقصود من الناس هم هؤلاء المشركون الذين يدعون من دون الله آلهة أخرى، وهى فى نفس الوقت دعوة لكل الناس لتأمل هذا المثل. والمؤمنون يجدون فيه مثلاً مذهلاً يُثبت التوحيد فى قلوبهم ويفخرون بأنهم يعبدون هذا الإله الواحد الأحد القادر المتحدى، ويحمدون الله ـ تعالى ـ أن نجاهم من موارد الشرك فهى مُهلكة فى الدنيا والآخرة.

يقول ابن القيم: «حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه». وصدق ابن القيم.

* يضرب الله ـ تعالى ـ المثل بمخلوق من أضعف مخلوقاته يستقذره الناس ويضيقون به فيذبونه كلما حط على أحد منهم .. ولذلك سمى ذباباً.

والإله الحق الذى نعبده بحق من أعظم صفاته أنه الخالق لكل المخلوقات .. كبيرها وصغيرها، عظيمها وحقيرها، قويها وضعيفها، وله حكمة بالغة فى خلق هذا وذاك من المخلوقات .. وهذه الحكمة لا تغيب على أولى الألباب.

فهل تستطيع الآلهة المدعاة إذا اجتمعت كلها أن تخلق ذبابة ؟ .. لن تستطيع أبداً، والتحدى قائم حتى تقوم الساعة. وإذا كان الأمر كذلك فهل ينتهى المشركون عن شركهم ؟ ألا يستحيون من ضلالاتهم وأباطيلهم ؟!

* ولا ينتهى المثل عند هذا الحد، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يزيد المشركين

إحساساً بعجز آلهتهم المدعاة وسخف عبادتهم لها، فيقول إن هذه الذبابة الضعيفة إن سلبت من آلهتهم شيئاً لا تستطيع هذه الآلهة أن تسترده منها، فهي عاجزة عن دفع الأذى عن نفسها، وعاجزة عن استرداد ما سلب منها .. فهل تعبد هذه الآلهة العاجزة ؟

من هنا نفهم لماذا كان ضرب المثل بالذبابة وليس بمخلوق ضخم كالفيل مثلاً حتى تتضح المفارقة، وتتجلى المقارنة .. فهل يثوب هؤلاء المشركون إلى رشدهم ؟

* ويبقى سؤال هام .. من الطالب والمطلوب الذى ساوى الله ـ تعالى ـ بينهما فى العجز ؟

جاء فى كتاب التفسير القيم الذى يتضمن تفسير ابن القيم لبعض آيات القرآن الكريم ما يلى :

* قيل أن الطالب هو العابد، والمطلوب هو المعبود .. فهو عاجز متعلق بعاجز.

* وقيل أن الطالب هو الإله (المسلوب منه)، والمطلوب هو الذباب (السالب) فهما متساويان فى العجز والضعف.

* وقيل أن الطالب هو الذباب، والمطلوب هو الإله .. فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه وكلاهما متصف بالضعف.

* وكل هذه المعانى دليل على الأسلوب المعجز للقرآن الكريم الذى يطلق العنان لتداعى المعانى وكلها يحتملها المعنى ويستسيغها العقل .. وسبحان من هذا كلامه.